كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: التاسعة

أستاذ المادة : أ.م .د. نوفل حامد عبد الرحمن عمران الهيتي

اسم المادة باللغة العربية : انتشار الاسلام في افريقيا

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Spread of Islam in Africa

اسم المحاضرة التاسعة باللغة العربية: الاسلام في افريقيا الغربية

اسم المحاضرة التاسعة باللغة الإنكليزية: Islam in West Africa

الاسلام في افريقيا الغربية

أطلق العرب المسلمون في العصر الوسيط على مناطق افريقيا الغربية اسم بلاد السودان الغربي والاوسط، وهي المنطقة الممتدة عندهم من المحيط الاطلسي في الغرب حتى سودان وادي النيل في الشرق، وتقع بين المناطق الصحراوية في الشمال ونطاق الغابات الاستوائية في الجنوب.

ان ارتباط العرب بغرب القارة الافريقية لا يقل قوة عن ارتباطهم بشرق القارة فكما اتصل الشرق الافريقي بسواحل جنوبي الجزيرة العربية والخليج العربي، فان التأثير العربي الاسلامي وصل الى غرب افريقيا من الشمال الافريقي، وعبر الصحراء الكبرى، التي لم تكن تشكل مظهرا للعزلة والفصل وانما كانت اداة للربط والاتصال الشمال والجنوب عبر الواحات المنتشرة فيها. والجدير بالذكر ان تاريخ هذه المنطقة يرتبط بما جاورها لا سيما في الشمال ونقصد بذلك الصحراء وشمال افريقيا. وعلى الرغم من ان هذه المناطق خارجة عن نطاق دراسة بلاد السودان الغربي والاوسط الا ان تأثيرها مستمر في تاريخ هذه المنطقة خصوصا بعد وصول العرب المسلمين اليها. ولهذا السبب اصبح من الضروري ان نشير بين الحين والآخر الى بعض الخطوط العامة لتاريخ المنطقة الواقعة الى الشمال من افريقيا الغربية. كما ستكون دراستنا لتاريخ افريقيا الغربية مقسمة على قسمين: فيها الوجود ود العربي في السودان الغربي اولا وفي السودان الاوسط ثانيا، ولا سيما ان تاريخ كل منطقة له سماته وطبيعته الخاصة.

اولا: العرب المسلمون في السودان الغربي

١ ـ الصلات الاولى بين شمال افريقيا والسودان الغربي

ليست لدينا اية معلومات واضحة عن صلة العرب قبل الاسلام بالسودان الغربي(١). لكن المصادر العربية تزودنا بمعلومات وفيرة عن بدء وصول العرب المسلمين الى السودان الغربي، بل يمكن القول ان ما ورد من مادة فريدة واصيلة عن افريقيا جنوب الصحراء في المؤلفات العربية بخاصة كتب البلدانيين يشكل لنا الأساس في تدوين قضية الوجود العربي في افريقيا الغربية كلها ومنها السودان الغربي. ولولا المصنفات والمؤلفات العربية لما عرفنا شيئا عن تاريخ هذه المنطقة.

لقد انتقلت المؤثرات العربية الى السودان منذ البواكير الاولى للعصر الاسلامي ويمكن التأكيد على ان وصول العرب المسلمين الى تلك المنطقة له اثر كبير في تطوير حياة الشعوب الافريقية فيها.

بدأت صلات العرب المسلمين الأولى بالسودان الغربي بالجهد العسكري الذي بذله قادة العرب الاوائل. فلقد استطاع القائد العربي عقبة بن نافع الفهري في عام ٦٢هـ/ ٦٨١م من توجيه حملة عسكرية الى الحافات الشمالية للصحراء الغربية التي تعد المعبر الذي يربط المغرب الاقصى بالسودان الغربي. وعلى الرغم من ان معظم الروايات العربية التي وصلتنا عن حملة عقبة هذه لا تحتوي اي ذكر محدد للمناطق السوس التي وصلها عقبة وجيشه في الصحراء الغربية ، الا اننا نجد تفصيلا لذلك في نص لصالح بن عبد الحليم (القرن ٨هـ/ ١٤م) في كتابة الانساب حيث يعطينا صورة واضحة عن تقدم عقبة بن نافع في السوس الادنى والسوس الاقصى، فهو يقول: "فلما فرغ عقبة بن نافع من المغرب الاوسط دخل المغرب الاقصى سنة ٦٢هـ ـ وعقبة اول من دخلها من عمال المسلمين ـ وصل عقبة طنجة ووجد واليها فاستسلم له. فتقدم عقبة حتى وصل وليلة.. فوجد فيها جموع البربر فقاتلهم حتى هزمهم واتبعهم الى درعه ومن هناك نزل الى بلاد أيغران يطوف وقيل انه رجع من ا الادنى الى بلاد درعة فدخل بقبيل صنهاجة فأطاعوه ولم يقاتلوه وكذلك هسكورة". اما رواية ابن خلدون (القرن ٨هـ/ ١٤م)، فقد ذكرت ان عقبة " قد . السوس الى منطقة الملثمين، حيث قاتل قبيلة مسوفة البربرية " ومن هذا يظهر لنا ان ابعد نقطة في الصحراء الغربية وصلها العرب وقائدها عقبة بن نافع كانت وادي درعة، التي سماها صالح بن عبد الحليم (أيغران يطوف). وسماها خلدون (بلاد مسوفة).

تبعت حملة عقبة بن نافع الأولى الى الصحراء الغربية حملات القائد موسى بن نصير الى وادي درعة. ولقد مكنت كلتا الحملتين العرب التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها من قبائل صنهاجة.

ومما يلحظ هنا الى ان الروايات المحلية في غرب افريقيا تذكر ان عقبة بن نافع استطاع ان يدرك بلاد السودان الغربي ويصل الى منحنى النيجر. السنغال وان ذكرى هذا القائد بقية حية عبر الاجيال متمثلة في انتساب بعض القبائل في غرب افريقيا الى عقبة بن نافع

استمرت حملات العرب العسكرية الى مناطق الصحراء الغربية في القرن الثاني . للهجرة / الثامن للميلاد، نذكر منها حملة حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع ايام ولاية عبيد الله بن الحبحاب على بلاد المغرب (١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤٠هـ) التي وصلت الى " السوس الاقصى وارض السودان " (")". وعلى الرغم من عدم وضوح هذا النص الذي وصلنا عن نشاط العرب العسكري ايام ابن الحبحاب، لكن نستطيع القول ان العرب حاولوا الوصول الى بلاد السودان الغربي في هذا الوقت المبكر. وان مثل هذه الحملات فتحت الطريق امام العرب للوصول الى تلك المناطق بصورة واسعة. في خلال القرون التالية من القرن الثاني الى الخامس للهجرة / الثامن الى

الحادي عشر للميلاد، أدت القوى السياسية في بلاد المغرب دوراً كبيراً في توثيق صلة عرب ببلاد السودان الغربي باقامة علاقات سياسية وتجارية مع تلك المناطق. ولعل اهم ما نذكره هنا هو صلات العرب الأدارسة، الذين اسسوا دولتهم في المغرب الاقصى في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، تلك الصلات التي اقاموها مع الصحراء الغربية والسودان الغربي. ولدينا اشارات في المصادر العربية الى ان سلطة الادارسة الواسعة في الصحراء الغربية قد وصلت الى اعماق السودان الغربي. فيذكر . اليعقوبي ان مدينة تامدلت في وادي درعة والمناطق جنوبها كانت بيد الادارسة، وان لهم الفضل في أسلام بربر الصحراء الغربية الى الصنهاجيين كما كان للفاطميين الذين حكموا المغرب في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أثر في ايصال المؤثرات العربية الاسلامية الى السودان الغربي.

وحالما وصل العرب المسلمون الى الشمال الافريقي، بدأت القبائل العربية بالتوغل نحو الجنوب وكان انسيابها بصورة مستمرة. ومما يلفت النظر ان العرب فاقوا غيرهم من الشعوب في مقدرتهم على الانسياب في الداخل الافريقي والوصول الى مناطق الصحراء وبلاد السودان واخضاعها لنفوذهم. وكانت القبائل العربية كلما مضت في تقدمها جنوبا احتكت بقبائل البربر والزنج بل ارغمت الكثير منهم على الاندفاع جنوبا. وقد استمر التدفق العربي قائما حتى دخلت بعض القبائل العربية الى مشارق النيجر والسنغال في السودان الغربي (ومناطق بحيرة تشاد في السودان الاوسط ايضا).

ومما لا شك فيه ان توغل العناصر العربية الاولى الى الصحراء والمناطق جنوبها قد رافقه نشاط التجار العرب الذين بدوا ينفذون الى تلك الجهات بالقوافل التجارية كما سنفصل ذلك فيما بعد. كما ان المؤثرات العربية الاسلامية فقد انتقلت الى السودان الغربي نتيجة هجرة جماعات كبيرة من اجل نشر العقيدة العربية الاسلامية. قد اسهمت هذه الجماعات المتكونة من العلماء والفقهاء والمتصوفة بدور كبير في نشر الاسلام في مناطق السودان الغربي. ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي شهدت بلاد المغرب والمناطق الواقعة جنوبها اكبر الهجرات العربية، وهذه الهجرة عرفت في " التاريخ باسم " حركة بني هلال ". وقد كان لهذه الهجرة ـ كما سنفصل ادناه – اثراً كبيراً جدا في وصول العرب وانتشارهم في بلاد المغرب والمناطق جنوبها (الصحراء واطراف السودان).

الهجرة الهلالية:

شهد منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تدفق اعداد كبيرة من القبائل العربية، مصحوبين بعوائلهم وممتلكاتهم، غير تاركين شيئا وراءهم يفكرون بالعودة اليه في مناطق وجودهم السابقة في مصر. وقد كان هذا التدفق – كما سنلاحظ مدعوما بقوة من الفاطميين، حيث انتشر القادمون من العرب في كل مناطق بلاد المغرب وفي كثير من مناطق الصحراء بحثا عن مستقرات لهم. عرفت القبائل العربية القادمة الى بلاد المغرب في القرن ٥هـ/ ١١م في التاريخ باسم "القبائل الهلالية " وعلى الرغم من اننا لا نعرف اصل هذه التسمية، نظرا لان الهجرة الهلالية كانت قد ضمت قبائل عدنانية هلالية وغير هلالية، وقبائل قحطانية ايضا. الا ان الواضح ان بني هلال كانوا قد ترأسوا زعامة كل هذه المجموعات المهاجرة . كما يعتقد ان قبائل بني هلال كانت أولى القبائل العربية التي دخلت بلد المغرب في ذلك الوقت . اما اهم القبائل التي ضمنتها الهجرة الهلالية فهي: بنو هلال وبنو سليم، ويرجع معظمهم الى أصلين كبيرين هما هوزان بن منصور وسليم بن منصور، ومنصور هذا يرجعه النسابة العرب الى قيس عيلان بن مصر بنو هلال القيسية. زغبة ورياح والاشبج وعدي. اما بنو سليم، فكانت قبائلهم هي زغب وهيب وعوف وذياب وناصرة وعميرة. وكانت القبائل القيسية الأخرى التي . وتشمل قبائل وغيرهم. ضمتها هذه الهجرة هي فزارة والاشجع من غطفان، وبنو جشم وسلول من هوزان اما القبائل غير القيسية فمنها عمرة بن اسد بن ربيعة من نزار. وفيما يخص المجموعة القحطانية التي ضمتها الهجرة الهلالية، فأهمها المعقل بفروعهم المختلفة ولخم وجذام

كانت كان الموطن الاصلي للقبائل الهلالية شبه الجزيرة العربية . اسهمت هذه القبائل في عملية نشر العقيدة العربية الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية. وفي خلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي شجع بنو هلال وبنو سليم على الهجرة الى مصر والاستيطان فيها . وما ان حل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى " مجموعات كبيرة من القبائل الهلالية قد استقرت في مصر العليا (في الحوف الشرقي) وفي كتاب المقريزي (البيان والاعراب) نجد وصفا مسهبا للقبائل العربية التي استوطنت مصر العليا، وبناء على روايته، فقد ضمت القبائل العدنانية مجموعات من قريش اضافة الى بني هلال وسليم. اما القبائل القحطانية فقد تكونت من جهينة ولخم وجذام . وما الا سنوات قليلة قبل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حتى بدأت القبائل العربية في مصر العليا حركتها باتجاه بلاد المغرب. هي

اما الدوافع وراء هجرة بني هلال الى بلاد المغرب فيمكن تلخيصها بما يلي:-

١ ـ كان بنو هلال المستقرين في مصر سببا لكثير من الاضطرابات والفتن وقد رأى الحكام الفاطميون ضرورة التخلص منهم، وكانت الدولة الفاطمية في مصر تعاني من ازمات اقتصادية وصلت الى حد المجاعة في القرن الرابع الهجري / العاشر ويظهر ان الفاطميين حاولوا التخلص من بني هلال، دفعا للاضطرابات التي يثيرونها، وتحفيفا للازمة الاقتصادية التي تعانيها مصر، وذلك عن طريق تشجيع هؤلاء بالهجرة الى المغرب

٢ ـ ان الازمة الاقتصادية في مصر قد اثرت في القبائل الهلالية ودعتها الى التفكير في البحث عن مناطق استقرار افضل فأختارت بلاد المغرب لتكون منقذا لها على حد قول ابن خلدون ، ولا سيما ان هناك جماعات من عرب بني هلال كانت قد استقرت منذ مدة طويلة في منطقة برقة وهم بنو قرة .

٣ ـ كانت الحالة السياسية في المغرب أبان منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي عاملاً مهماً في هجرة بني هلال. ففي هذا الوقت تدهورت آل زيري (من قبيلة صنهاجة) الذين تركهم الفاطميون لحكم بلاد المغرب بعد مغادرة الاخيرين الى مصر، وبين السلطة الفاطمية في الزمن حاول آل زيري الاستقلال بحكم بلاد المغرب الى ان تحقق لهم ذلك فعليا عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م). ولما كان الفاطميون عاجزين عن مجابهة الزيريين عسكريا بسبب ازماتهم الاقتصادية التي اشرنا اليها، فقد قرروا توجيه القبائل العربية البدوية الضخمة التي تسكن الحوض الشرقي من مصر الى بلاد المغرب انتقاما من آل زيري.

بدأت هجرة بني هلال الى بلاد المغرب بموجب خطة وضعها اليازوري وزيرالحاكم الفاطمي المستنصر بالله، بان اصلح القبائل الهلالية المتصارعة واغرى رؤسائهم بالعطايا، وأفراد قبائلهم بالهدايا فاندفعت هذه القبائل عابرة نهر النيل ونزلت منطقة برقة حيث المراعي الخصبة لحيواناتها. ومن برقة استمرت قبائل بني هلال بالتدفق الى انحاء المغرب والصحراء. أما في المغرب الادنى (افريقية). فقد اصطدمت القبائل الهلالية بالسلطة الزيرية ودارت بينهم معارك كثيرة كانت نتيجتها سقوط القيروان عاصمة آل زيري على يد العرب . كما تم لهم السيطرة على مدن اخرى مثل تونس، وبونة، وقسطنطينية. ولعل النتيجة البارزة لسيطرة القبائل العربية على مدن المغرب الادنى هي انقسام المملكة الزيرية الى امارات صغيرة، يحكم الزيريون احداها في المهدية . ويمكن القول ان الفوضى السياسية التي عمت بلاد المغرب بعد سقوط الحكم الزيري يرجع الى عدم قدرة الهلاليين على تأسيس اي حكومة ذات اهمية في المنطقة. اما الحكومات التي اسسها هؤلاء العرب الهلالية مثل امارة بني جامع في قابس، وبني جبارة في سوسة؛ وامارة ابي الورد اللخمي في بنزرت، فلم تكن لها القابلية والقوة على اقامة دولة عربية قوية موحدة في بلاد المغرب تضع حدا للفوضى السياسية فيه. في المغرب الاوسط انتشرت القبائل العربية الهلالية مشتبكة بقبائل زناتة البربرية هناك ودارت بينهما حروب طويلة طاحنة كانت نتيجتها اندحار زناتة امام الهلاليين .

اما النتيجة الاكثر اهمية من ذلك فهي سقوط الكيانات السياسية لزناتة وصنهاجة، وانتشار العرب الهلاليين في بلاد المغرب وهيمنتهم على انحاء المغربين الادنى والاوسط.

وفيما يخص المغرب الاقصى، فالذي يبدو من النصوص التي بين ايدينا ان العرب الهلالية لم يصلوا الى المغرب الاقصى الا في القرن السادس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وقد ادى الموحدون دورا مهما في ذلك حيث نقلوا اعداداً كبيرة من القبائل الهلالية التي كانت متسقرة في المغربين الأدنى والاوسط الى المغرب الاقصى، في محاولة للسيطرة عليهم اولا وفي الاستفادة منهم في حروبهم وتوسعاتهم في الاندلس ثانيا

اما مناطق الصحراء فقد شهدت هي الاخرى وصول مجموعات من القبائل العربية الهلالية حيث اندفع بنو سليم الى صحراء فران جنوبي برقة وطرابلس واستقروا في مراكز الاستقرار فيها. ويشير الادريسي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي الى ان مناطق فزان كانت تحت نفوذ العرب المنتشرين فيها. ومما يبدو ان منطقة فزان اصبحت قاعدة للانتشار العربي في الصحراء باتجاه الجنوب والغرب بفعل العوامل البشرية والجغرافية والتجارية فمنها تدفق العرب الى مناطق السودان جنوبا وانتشروا حول بحيرة تشاد والى الصحراء الغربية غربا . واخيرا يمكن القول ان العرب الهلاليين الذين انتشروا في صحراء فزان بعد منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي اسهموا بصورة واضحة في تشكيل العنصر البشري في فزان من خلال استقرارهم ومتزاجهم مع سكان المنطقة . البربر (قبائل لمطة من وهوارة)

كما نجد ان قبائل هلالية من بني زغبة قد تدفقت الى الصحراء الواقعة جنوب المغرب الاوسط (الجزائر الحالية) واستقرت فيها. اما الصحراء الغربية فقد وصلتها العرب الهلالية في نهاية ٥هـ / ١١ م وبداية القرن ٦ هـ / ١٢م وما بعده، حيث استطاعت قبائل المعقل القحطانية بفروعها المختلفة الانتشار في المناطق الشمالية هذه الصحراء واستقرت فيها (*). وتكاثر بنو المعقل في هذه المنطقة واندمجوا مع سكانها من بربر صنهاجة واصبحت هذه الصحراء مناطق عربية بفضلهم. وبتقادم الزمن تدفق قسم منهم (اي المعقل) الى مناطق السودان الغربي جنوبا، حيث نجد في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وما بعده وجود مجموعات من قبائل بني حسان - احدى فروع المعقل – في منطقة نهر النيجر . واخيرا لا بد من الاشارة الى كثرة الحديث بين المهتمين بالتاريخ، القدامي والمحدثين، الشرقين والغربين، عن نتائج الهجرة الهلالية الى بلاد المغرب، وتصارع الافكار حول كون الهلاليين العرب يمثلون احد اسباب الانهيار السياسي والاقتصادي الذي حل في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، لكن هذا لا يقلل من كون الحركة الهلالية كانت من اهم القنوات التي حملت العروبة بكل جوانبها الى اماكن لن يصلها العرب بهذا الشكل الواسع.